مجلة دراسات بيت المقدس، 2018، 18(3):97-108
DOI: 10.31456/beytulmakdis.482391

نشاطات نورالدين محمود زنكي العسكرية في دمشق ومنبج

عائشة بنت مرشود الحربي*

ملخص: يهدف هذا المقال إلى عرض نشاطات نور الدين محمود زنكي في دمشق ومنبج، وتم له ذلك باستخدامه للكثير من الأساليب الدبلوماسية والعسكرية وتسابق مع الصليبيين في السيطرة على دمشق، وكان النصر حليفا له، وكان لسيطرته على دمشق الكثير من النتائج، ومن أهمها انتقال الحكم من البيت البوري إلى الأتابكي، وهذا جعله يتطلع إلى ضم الجبهة المصرية للجبهة الشامية حتى يتسع أفق الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين كما أنه قطع أواصر التحالف بين أسرة طغتكين والصليبيين، ولجأ نور الدين إلى استخدام سياسة حكيمة مع الأهالي قائمة على الإحسان والبعد عن سفك الدماء، مع الحرص على بناء وتعمير دمشق حتى تكون رمزا شامخا للحضارة الإسلامية. أما في بلاد الجزيرة فإنه استولى على الكثير من المدن والقلاع وفي مقدمتها منبج. وقد اتبعت الباحثة المنهج التاريخي القائم على الوصف والمقارنة والتحليل، وختم البحث بأهم نتائج الدراسة ومن أهمها أن سيطرة نور الدين على دمشق قد حطمت الحاجز الذي يفصل بين شمال الشام وجنوبه.

الكلمات المفتاحية: معين الدين أنر، بلدوين الثالث، نورالدين محمود، دمشق، منبج.

The Military Activities of Nur al-Din Zengi in Damascus and Manbij

ABSTRACT: *This paper aims at presenting the activities of Nur al-Din Mahmud Zengi in Damascus and Manbij, through both diplomatic and military means. He competed with the Crusaders in controlling Damascus and was successful in brining it under his control, which had many consequences in consolidating his strength in the region. One of the most important being the transfer of sovereignty from the Buri to Atabak dynasty. This brought him closer to achieving his goal of uniting Syria with Egypt and thus widen the horizons of Jihad against the Crusaders. Also controlling Damascus had another impact on severing the alliance between the Toghtekin with the Crusaders. In dealing with the local population Nur al-Din resorted to the implementation of a wise policy based on munificence and distancing himself from any bloodshed. This is together with his eagerness on constructing Damascus and making it a symbol of Islamic civilization. As for the region of al-Jazeera (Mesopotamia) Nur al-Din was able to bring many of its cities and citadels under his control and particularly the city of Manbij. In this paper a historical methodological approach was adopted based on description, comparison and analysis of sources. The paper's most important conclusion is that, Nur al-Din's control over Damascus broke the barrier that separated the north and south of Syria.*

KEYWORDS: Mu'in al-Din Unur, Baldwin III, Nur al-Din, Damascus, Manbij.

* استاذ التاريخ الوسيط المشارك بجامعة طيبة – السعودية. Ay.1430@hotmail.com

مقدّمة

تعرض العالم الإسلامي منذ القدم لموجات متعددة من العدوان الخارجي، ففي أواخر القرن الخامس الهجري، أواخر القرن الحادي عشر الميلادي تقاطرت الجموع الصليبية من أوربا بغرض السيطرة على بلاد الشام والجزيرة. وتمكن الصليبيون في أعقاب الحملة الصليبية الأولى من تأسيس أربع كيانات صليبية لهم، وهي الرها، وأنطاكية، ومملكة بيت المقدس، وطرابلس. ويرجع الانتصار الصليبي في المقام الأول إلى حالة التمزق السياسي والمذهبي في العالم الإسلامي بين الخلافة العباسية والفاطمية. وبعد هذه الصدمة ظهرت أصوات تنادي بأهمية توحيد الصف الإسلامي لمواجهة العدوان الصليبي، ومن أهم قادة الوحدة والجهاد نور الدين محمود زنكي.

وتمثلت أهمية دراسة موضوع نشاطات نور الدين العسكرية في دمشق ومنبج في محورين: أولهما عرض جهوده الدبلوماسية والعسكرية للسيطرة على دمشق ومنبج. وثانيهما أثر نجاحه في السيطرة على دمشق في مواصلة جهاده وامتداده في نطاق أوسع. وتهدف الدراسة إلى تأكيد أن بلاد الشام كانت منذ أقدم عصورها محط أنظار الطامعين، إضافة إلى عرض الخطوط العامة لأحداث الصراع الإسلامي الصليبي في بلاد الشام، وأعظم الانتصارات الإسلامية التي حققت على تلك الجبهة.

أما عن منهج الدراسة فهو المنهج التاريخي من حيث الوصف والمقارنة والتحليل والاستنتاج، وذلك بغرض الوصول إلى الحقيقة التاريخية نسبيا. وأنهيت الدراسة بخاتمة اشتملت على أهم النتائج التي توصلت إليها، ومنها أهمية الاستيلاء على دمشق في تحقيق الوحدة الإسلامية في بلاد الشام، وكشفت الدراسة عن أثر تحالف حكام دمشق مع الصليبيين على حركة الجهاد الإسلامي، وأن سيطرة نور الدين على دمشق قد حطمت الحاجز الذي يفصل بين شمال الشام وجنوبه. وفي النهاية تم ذكر قائمة المصادر والمراجع.

مدخل

تعد إمارة دمشق بمنزلة حجر عثر في وجه نور الدين محمود، لأن حكامها حلفاء مخلصون للصليبيين، عندها لجأ نور الدين إلى أسلوب الزواج السياسي إذ تزوج من ابنة معين الدين أنر،[1] وزير الحاكم مجير الدين[2] وبموجب ذلك الزواج فإنه أوجد لنفسه الطريق الدبلوماسي للتدخل في شؤون دمشق،[3] وكان وزيرها في ذلك الوقت عقد هدنة مع الصليبيين لمدة عامين، ولكنه ما لبث أن توفى بعد ذلك في هذه السنة نفسها (544هـ/1148م)، عندها عمد الصليبيون إلى نقض هذه الهدنة بقيادة ملكهم بلدوين الثالث (539-558هـ/1144-1162م)، لأنهم أرادوا استغلال فترة وفاة الوزير معين الدين أنر، وذلك بالتدخل في أمور دمشق الداخلية، بل والإغارة على إقليم حوران[4] بغرض السلب.[5] والذي شجعهم على ذلك الخلاف القائم بين مجير الدين أبق ووزيره الجديد ابن الصوفي.[6] إذ عزله مجير الدين عن منصبه فما

كان من ابن الصوفي إلا أن طلب المؤازرة من سفهاء الأحداث وعامة الجهلة الذين يحملون السلاح، فحاصروا مجير الدين في قلعته، بل وأجبروه على إعادة ابن الصوفي إلى الوزارة مرة أخرى،[7] ومن هذا المنطلق وجد نور الدين محمود أن الفرصة أتيحت له للتدخل في شؤون دمشق، خاصة بعد دخول الصليبيين إلى إقليم حوران، فجهز جيشه ليصد الصليبيين عن إقليم حوران، فطلب المساعدة من مجير الدين أبق ولكنه رفض؛ وذلك وفاءً لحلفائهم الصليبيين.[8] مما سبق نستنتج أن سوء الأحوال الداخلية لدمشق كانت المحرك الرئيس لتدخل القوى الخارجية بغرض السيطرة عليها.

سياسة نور الدين تجاه حوران والمناطق الدمشقية

لم يهتم نور الدين بجواب مجير الدين، بل إنه استمر في عزمه على صد الصليبيين، وما إن علم الصليبيون بمقدم نور الدين إليهم حتى غلبهم الخوف الشديد من الاصطدام بقوات نور الدين محمود فقفلوا راجعين إلى بلادهم. أما نور الدين فعاد وعسكر غرب دمشق، وفي الوقت نفسه فإنه اتبع سياسة حكيمة تجاه إقليم حوران والمناطق الدمشقية، إذ أمر عساكره بعدم العبث والإفساد في الضياع والمزارع التابعة لدمشق، كما أمر جنده بالإحسان إلى الفلاحين؛ لأن المعاملة الحسنة تكسب قلوبهم لتميل إليه،[9] ولذا رأى الناس في مقدمه علامات الخير، إذ ما لبثت الأمطار أن أخذت تتساقط بغزارة بعد أن عم البلاد فترة من الجدب والقحط حتى إنهم قالوا: "هذا ببركته".[10] ومما لا شك فيه أن هذه المعاملة الحسنة من قبل نور الدين محمود تجاه أهل دمشق جعلتهم يرون الفرق بين نور الدين محمود وحاكمهم مجير الدين، وهذا له أثره في تطلعهم بل وتأييدهم لسيطرة نور الدين على دمشق.

استراتيجيات نور الدين في السيطرة على دمشق

عندما وصل نور الدين إلى دمشق في ذي الحجة من السنة 544هـ/1148م جدد طلب المساعدة العسكرية وأخبر مجير الدين أن هدفه من القدوم إلى دمشق هو أن يحارب الصليبيين، ولكن مجير الدين أغلظ في رده على نور الدين، إذ قال له: "ليس بيننا وبينك إلا السيف".[11] وزيادة على ذلك هدده بالاستعانة ضده بالصليبيين الذين كانوا قد ساروا إلى جنوب فلسطين بزعامة بلدوين الثالث، وذلك لتشييد عمارة غزة المواجهة للحامية المصرية[12] في عسقلان.

لكن نور الدين ظل صامداً بل ومصراً على موقفه، فسار بجيشه نحو دمشق، ولكن الأمطار الغزيرة أعاقته عن مواصلة المسير نحوها، كما أنه لم يشأ أن يدخل معهم في حرب، وذلك حقناً لدماء المسلمين، وفي الحقيقة أن مسير نور الدين إلى دمشق أثار مخاوف مجير الدين وأمرائه، وهذا الخوف دفعه أن يعلن دخوله في طاعة نور الدين في المحرم من سنة 545هـ/1150م. وكان ذلك مقابل أن يبقى مجير الدين

حاكماً على بلاد دمشق، وكذلك أن يخطب لنور الدين على منابر دمشق بعد الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي وضرب اسمه على السكة. وبعد هذا الاتفاق خلع نور الدين على مجير الدين ووزيره ابن الصوفي وعاد بعدها راجعاً إلى حلب[13] كما ذكر ذلك أبو شامه بقوله: "بعد إحكام ما قرر وتكميل ما دبر"[14] وبالرغم من ذلك كله فإن نور الدين لم يكن مطمئن البال تجاه مجير الدين، ومدى صدق دخوله في طاعته، وهو في الوقت نفسه حليف للصليبين، وسبق أن عقد معهم هدنة لمدة عامين، وعندما شارفت هذه الهدنة على الانتهاء خشي نور الدين أن يقوم مجير الدين بتجديد تلك الهدنة، ولذلك سار نور الدين بجيشه متجهاً إلى دمشق في عام 546هـ/1150م. وعندما وصل إلى دمشق نزل قريباً منها، وطلب من مجير الدين ووزيره ابن الصوفي أن يشاركاه في حربه ضد الصليبيين، ولكنه ظل مؤازراً للصليبيين، فعمد نور الدين عندها إلى مراسلة أعيان البلد، وذلك حتى يساعدوه في جهاده ضد الصليبيين، ولكن الرد كان سلبيا أيضاً، فلم يجد أي مبادرة لمساعدته، فواصل نور الدين زحفه تجاه دمشق، فحدثت مناوشات عسكرية خفيفة بين الجيشين إذ كان نور الدين يتحاشى كثرة إراقة دماء المسلمين، أما عساكر مجير الدين فظهروا عاجزين عن مقاومة جيش نور الدين؛ فأسرعوا في طلب النجدة من الملك الصليبي بلدوين الثالث، وما إن وصلت الرسل إلى بلدوين الثالث حتى قدم إلى دمشق في قوة صغيرة.[15]

عندما علم نور الدين بخبر وصول القوات الصليبية قرر الانسحاب،[16] فانسحب إلى داريا؛[17] ليقضي على القوة الصليبية قبل دخولها إلى دمشق، وفي الوقت نفسه أخذ في التنقل من مكان إلى آخر، وذلك بهدف أن ينشغل الصليبيون في مطاردته وبذلك يبتعدون عن دمشق هدفهم الرئيسي، ولا يستطيعون الاحتماء بقلعة دمشق إذا ما انهزموا.[18] وكذلك أرسل مجموعة من جنده إلى حوران للدفاع عنها ضد أي هجوم صليبي، ورغم كل هذه الاحتياطات إلا أن قوات الملك الصليبي بلدوين الثالث تمكنت من الوصول إلى مجير الدين، والذي ما لبث أن شعر بالفشل الذريع، لما رأى قلة حجم قوات الملك بلدوين الثالث.[19]

وتم الاتفاق بين الصليبيين وحكام دمشق على محاولة إبعاد نور الدين عن دمشق، مع تجنب الصدام المباشر بالقوات النورية، فاختاروا النزول على حصن بصرى،[20] للاستيلاء عليه، واستغلال أعماله، ولسهولة انسحابهم من بصرى إلى بلادهم إذا ما شعروا بالهزيمة،[21] وما إن اتجهوا إلى بصرى حتى خرج عليهم واليها البلخي[22] وصدهم عنها.[23]

وأثار وصول القوات الصليبية إلى دمشق غضب الأهالي، ما ترتب عليه رفض كثير من الجنود الانضمام إلى العسكر الدمشقي، الذي جهزه نور الدين محمود، للاستيلاء على دمشق، وخاصة بعد أن

وصلته الرسل من أهالي دمشق يطلبون منه سرعة النجدة، فساءت أحوال البلاد الاقتصادية، نتيجة ارتفاع الأسعار، وازداد الأمر سوءاً نتيجة الأموال التي كانوا يدفعونها قطيعة سنوية للصليبيين. فتحرك نور الدين بقواته نحو دمشق، ولكن الرسل تبودلت بين الطرفين بغرض عقد الصلح، وكان لكل من أسد الدين شيركوه والفقيه برهان الدين البلخي مجهودات عظيمة في سبيل إتمام ذلك الصلح، وبالفعل تم عقد الصلح في يوم الخميس العاشر من شهر ربيع الآخر من سنة 546هـ/1150م،[24] وجدير بالملاحظة أن نقف عند أسرار موافقة نور الدين على عقد الصلح، مع أن كفته كانت هي الراجحة، ولكنه أدرك ببعد نظره أن المصلحة العامة تقتضي عقد الصلح، حتى لا يتهم بأنه أخذ دمشق عنوة، وحتى يكسب تأييد الأهالي ويجعلهم يدركون أنه جاء لحرب الصليبيين، لا لسفك دماء المسلمين،[25] وبالرغم من عقد معاهدة الصلح إلا أن مجير الدين ظل محالفاً للصليبيين، فرأى نور الدين أن الوقت حان؛ ليستولي على دمشق وخاصة أن الصليبيين قاموا بمحاصرة عسقلان، فاستغاث الفاطميون بنور الدين؛ لكي ينجدهم من العدوان الصليبي؛[26] فاتفق نور الدين مع مجير الدين أبق أن يقوما بحملة مشتركة ضد الصليبيين في عسقلان، فقاما بإعداد تجهيزات الحملة، وخرجا معًا وعندما وصلا بانياس[27] قاما بحصارها، وذلك حتى يصرفا أنظار الصليبيين عن عسقلان، وفي تلك الأثناء واصل الفاطميون في عسقلان طلب النجدة من نور الدين ضد الحصار الصليبي، وهنا اختلفت الآراء بين القيادتين إذ آثر مجير الدين الاستمرار في حصار بانياس، أما نور الدين فكان مصمماً على مد يد العون للفاطميين، ولكنه ما لبث أن تراجع عن ذلك وعاد إلى حلب،[28] وسوغ ذلك بقوله كما ذكر ابن منقذ حين قال له نور الدين: "يا فلان أهل دمشق أعداء، والافرنج أعداء ما آمن منهما إذا دخلت بينهما".[29] وتأسف نور الدين أسفاً شديداً عن عدم استجابته لنداء الفاطميين فذكر ذلك ابن واصل بقوله: "وكان نور الدين لما نازل العدو عسقلان يتأسف إذ لا يمكنه الوصول إليهم، ومنعهم عنها بسبب توسط دمشق بينه وبينهم".[30] وعندما سقطت عسقلان في أيدي الصليبيين 549هـ/1153م، ولى بلدوين الثالث عليها أخاه عموري الأول.[31]

ومما سبق نستطيع القول إن طبيعة العلاقة بين نور الدين ومجير الدين كانت ولاء مهزوم لمنتصر، ولم تكن تبعية مطلقة، فقد خالف مجير الدين نور الدين الرأي في أمر الاستجابة لاستغاثة الفاطميين في عسقلان، وهذا أمر له دلالته بأن مجير الدين ما يزال مستمرا في سياسة الولاء للصليبيين، لذا لم يشترك مع نور الدين بجيش واحد ضد الصليبيين.

وفي الجانب الآخر فإن نور الدين بثاقب فكره قد أدرك ذلك، وهذا دفعه للتراجع عن نجدة عسقلان، فهو يخشى خيانة أهل دمشق له، ونكثهم لعهد الولاء حينما يبتعد عن دمشق، وينشغل بمواجهة جديدة مع الصليبيين. أما عن تطورات الأحداث في دمشق بعد ذلك فقد ساءت الأحوال

الداخلية، وكان ذلك ناتجاً عن سياسة الحكام السيئة، إذ سمحوا لأنفسهم بأن يأخذوا الرشوة من الرعية، ولجأ بعضهم إلى أن يأخذ نصيبه مما يسلبه قطاع الطرق من الأموال، والمتأمل في هذا العمل يجد أن فيه تأييدًا من السلطة الحاكمة للقيام بعمليات السلب والنهب، وفي الوقت الذي يتعين فيه على الحاكم الإسهام في إقرار أمن البلاد، وليس العكس كما فعل حكام دمشق، أما الوزير ابن الصوفي فإنه اتخذ من الأحداث[32] والغوغاء حرساً خاصاً له.[33]

وكان نور الدين على معرفة تامة بتلك الأحداث؛ لذا رأى أن يقوم بخطوات تمهيدية لإسقاط دمشق، فقام هو بفرض حصار اقتصادي على دمشق؛ بمنع دخول الغلات إليها، ما أدى إلى إحداث المجاعات وارتفاع هائل في الأسعار.[34] ثم اتبع أسلوب الحرب الباردة؛ لأنها حرب تعتمد على ترويج الشائعات، فعمد في المقام الأول إلى ترويج الشائعات ضد مجير الدين، فأخبره أنه أساس فساد البلاد والعباد، ما أثار الرأي العام ضده.[35] ولم يبق الأمر عند هذا الحد، فمن المسلم به أن قوة أي حاكم من قوة حاشيته وأتباعه، ومن هذا المنطلق يتضح لنا مدى دهاء نور الدين إذ إنه نجح في زرع بذور الشك في نفس مجير الدين تجاه حاشيته، فكان نور الدين يرسل رسائله الودية إلى مجير الدين، ويخبره بأنه تلقى الكثير من رسائل الأمراء يطلبون منه المساعدة للثورة على مجير الدين، ولكنه رفض هذا العرض وذلك للعلاقات الحسنة القائمة بينهما آنذاك، وفي الحال عمد مجير الدين إلى التخلص من اتباعه واحداً تلو الآخر، وكان آخر من تخلص منه هو عطاء بن حفاظ السلمي،[36] الذي اتصف بالشجاعة الشديدة، ولذلك يصعب إسقاط دمشق وهو بها، ولهذا وجب التخلص منه،[37] وهكذا أصبح مجير الدين في الصف وحيداً من دون حاشيته ما جعله ضعيفاً في أنظار الآخرين، وكانت الخطوة الأخيرة لنور الدين في السيطرة على دمشق بأن أشار على أسد الدين شيركوه بمراسلة نجم الدين أيوب بدمشق وطلب المساعدة منه في سبيل إسقاط دمشق.

كان نجم الدين أيوب والياً على بعلبك، وبعد وفاة عماد الدين زنكي قام حكام دمشق بمحاصرة نجم الدين أيوب في بعلبك، فاضطر في النهاية إلى الاستسلام، ولكن مقابل أن يعطى أموالاً كثيرة،[38] وقرى عديدة من أعمال دمشق.[39] ومن خلال سلطة نجم الدين في أعمال دمشق تسهل عملية فتح المدينة، إذا ما تم التحالف بينه وبين نور الدين، وبعد ذلك قام نور الدين باستمالة أحداث دمشق وزناطرتها،[40] وطلب منهم تسليم البلد فوافقوا على ذلك.[41] وفي نهاية المطاف في المحرم من سنة 549هـ/ 1154م قام نور الدين بإرسال سفارة إلى دمشق بقيادة أسد الدين شيركوه، فكانت المفاجأة بأن مجير الدين رفض استقبال تلك السفارة، وذلك بحجة أنها جاءت مصحوبة بمظاهر عسكرية،[42] وما إن علم نور الدين بما حدث لسفارته، حتى أسرع بالخروج إلى دمشق، ودعمه انضمام أسد الدين شيركوه له،

ووصل إلى دمشق يوم الأحد الثالث من صفر سنة 549هـ/1154م، وعسكر شرق دمشق، وفي الحال خرج إليه رجال دمشق، وبدأ القتال بين الطرفين، وفي اليوم العاشر من صفر ثار أهل البلد، وذلك من شدة سوء الأحوال الاقتصادية، والضرر الذي لحقهم من جراء ذلك ففتحوا الباب الشرقي،[43] لأنه الزعيم الذي تهفو إليه النفوس، بالإضافة إلى ما اتصف به من صفات حميدة، كالبطولة والعدل وحسن السيرة، وهذا في الوقت نفسه شجعه للمسير نحو دمشق.[44] هكذا تمكن نور الدين محمود من دخول دمشق، فاستبشر الناس خيراً، لأنه دخلها صلحاً، فقام بضبط أمورها، وتحصين أسوارها، وكذلك قام ببعض الإصلاحات الداخلية فقام ببناء العديد من المدارس والمساجد.[45]

من العرض السابق ندرك أن المصادر التاريخية المختلفة كافة تضافرت في رصد خطوات نور الدين المختلفة والتي تهدف للسيطرة على دمشق، والتي تدل على براعته في تحديد الاستراتيجية المناسبة لكل خطوة ورسم سياسة التعامل مع حاكم دمشق ومدافعة الصليبيين في آن واحد، مع الحرص الشديد على توطيد حكمه في دمشق بمساندة أعوانه بالإضافة إلى تأييد أهالي دمشق له.

موقف مجير الدين أبق من سيطرة نور الدين على دمشق

أنفذ مجير الدين أبق الرسل إلى الصليبيين يطلب منهم سرعة القدوم لنجدته، وبذل لهم بعلبك وأموال كثيرة، فلبوا النداء، ولكنهم وصلوا بعد فوات الأوان.[46] إذ تمكن نور الدين من السيطرة على دمشق، عندها لم يجد مجير الدين طريقاً للنجاة سوى الاعتصام بالقلعة، فلجأ إليها هو ووزيره ابن الصوفي، لكن عامة الأهالي لم يتركوه، إذ قاموا بمحاصرته،[47] فاضطر في النهاية إلى الاستسلام، فأعطاه نور الدين الأمان، وزيادة على ذلك أقطعه حمص،[48] ولكن مجير الدين ما لبث أن اتصل بأهل دمشق وحرضهم على الانقلاب العسكري ضد نور الدين، فلم ينصاعوا لطلبه، وعندما علم نور الدين بذلك عزله عن حمص؛ لأنها على مقربة من الصليبيين،[49] وفي الوقت نفسه عرض عليه أن يوليه بالس[50] وهي على الفرات، ولكنه رفض ورحل إلى بغداد، وبقي بها إلى أن مات،[51] ونلاحظ من سياسة نور الدين تجاه مجير الدين أبق مدى سماحة أخلاقه، وحسن تصرفه إذ حاول استرضاء مجير الدين بطرق عدة، وأوضح الحكمة في ذلك بقوله: "إن أخذته بالقوة استغاث بالفرنج، وأعطاهم البلاد فيكون وهناً عظيماً على الإسلام".[52]

نتائج سيطرة نور الدين على دمشق

يمكن القول إن نور الدين قطع شوطاً كبيراً في بناء الجبهة الإسلامية الموحدة باستيلائه على دمشق، كما تحطم الحاجز الذي يفصل بين شمال الشام وجنوبه، وانتقلت زعامة بلاد الشام من الأسرة البورية إلى الأتابكية،[53] وأصبح الطريق مجهزاً له للسيطرة على وسط وشرق بلاد الشام والجزيرة الفراتية،[54] فأصاب ابن الأثير بقوله: "وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين محمود دمشق"،[55] فتطلعت أنظاره

بعد ذلك للسيطرة على مصر. ومن وجهة نظر الباحثة أن نور الدين ازداد قوة وحصانة بسيطرته على دمشق لذا أدرك بثاقب فكره أن الخطوة التالية هي التطلع لتقوية بناء الجبهة الإسلامية حتى يحقق انتصارات متجدده على الصليبيين.

نشاطات نور الدين العسكرية في بلاد الجزيرة

أورد ابن الأثير فيها سجلاً حافلاً لتلك الأعمال، ففي عام 562هـ/1166م أعلن غازي بن حسان العصيان على نور الدين، وكان نور الدين أقطعه مدينة منبج،[56] فأرسل إليه فرقة من عسكره تمكنت من انتزاع منبج منه، ثم أقطعها نور الدين لأخيه قطب الدين ينال بن حسان،[57] الذي اتصف بالعدل، والإحسان، وبقي والياً فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين الأيوبي في سنة اثنتين وسبعين وخمسمئة.[58] وفي مطلع سنة أربع وستين وخمسمئة ملك نور الدين قلعة جعبر،[59] وهي كما وصفها ابن الأثير بقوله: "من أمنع القلاع وأحصنها مطلة على الفرات من الجانب الشرقي".[60]

وأما عن كيفية استيلائه على تلك القلعة، فإن صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي وقع أسيراً في رجب سنة ثلاث وستين وخمسمئة عند نور الدين، فأحسن إليه، وعرض عليه المال والإقطاع مقابل أن يسلمه القلعة، ولكن عرضه ذلك قوبل بالرفض الشديد، فأرسل نور الدين إليه فرقة من عسكره، فأسند قيادتها إلى الأمير فخر الدين مسعود بن أبي علي الزعفراني، فقام بحصار القلعة، ولكن كان الحصار دون جدوى، وعندها أرسل إليه نور الدين قوات أخرى بقيادة ابن الدايه،[61] فعجز هو أيضاً عن فتحها، ما جعل نور الدين يجدد مع صاحبها الأسير لديه طلب التسليم، فوافق شهاب الدين في النهاية على التسليم فسلمها، وأخذ عوضاً عنها سروج،[62] وأعمالها، والملاحة التي بين بلد حلب وباب بزاعة،[63] وعشرين ألف دينار معجلة، وباستيلاء نور الدين على قلعة جعبر انمى حكم بني عقيل فيها، وعندما تسلم هذه القلعة جعلها إقطاعاً لابن الدايه،[64] والذي بدوره أقطعها لأخيه شمس الدين.[65]

من القراءة التحليلية للباحثة في كيفية سيطرة نورالدين على منبج نستنتج أمورًا عدة منها:

- أن نور الدين لم يظهر بصورة المنتزع لمنبج من واليها.
- حسن اختيار نور الدين للتوقيت المناسب للسيطرة على منبج بعد حركة عصيان واليها.
- دبلوماسية نورالدين في إسناد حكم منبج لحاكم عادل حتى يضمن دخوله في طاعته.
- حرص نور الدين على الاستيلاء على القلاع ذات الموقع الحصين.
- إن تعويض نور الدين لصاحب قلعة جعبر بقطاع آخر دليل على حرصه على عدم استثارة الخصوم عليه، حتى لا ينضموا مع الصليبيين.
- سياسة نورالدين في تقويه نفوذ رجاله بمنحهم الاقطاعات ذات المواقع الحصينة.

الخاتمة

من خلال الدراسة توصلت الباحثة للكثير من النتائج:

- برهنت الدراسة على دور نور الدين محمود في السيطرة على دمشق لدفع العدوان الصليبي بعد اكتمال الوحدة الإسلامية.
- براعة نور الدين باتخاذ الطريق الدبلوماسي في المقام الأولى نواة للتدخل في شؤون دمشق.
- كشف البحث عن الخطوات التمهيدية التي اتبعها نور الدين زنكي للسيطرة على دمشق.
- لعبت سياسة الإحسان من قبل نور الدين تجاه أهالي دمشق أكبر الأثر في كسب تأييدهم في السيطرة على دمشق.
- وقفت الدراسة على دور الملك الصليبي بلدوين الثالث في دعم حكام دمشق ضد نور الدين زنكي.
- رغبة نور الدين في حقن دماء المسلمين دفعته لقبول عقد الصلح مع حكام دمشق 546هـ/1150م بالرغم من تفوقه السكري عليهم.
- كان للحصار الاقتصادي والحرب الباردة أثرهما الكبير في إضعاف دمشق، ومن ثم سهولة السيطرة عليها.
- حنكة نور الدين محمود السياسية والإدارية في استمالة حاشية حكام دمشق، وحرصه على تقوية البناء الحضاري لها.
- أدى استيلاء نور الدين على دمشق إلى انتقال زعامة بلاد الشام من الأسرة البورية إلى الاتابكية.
- أوضحت الدراسة جهود نور الدين في السيطرة على منبج.

الهوامش

[1] معين الدين أنر بن عبد الله: كان مملوك ظهير الدين طغتكين مؤسس الأسرة البورية في دمشق، أصبح المتحكم بأمور دمشق باسم آل طغتكين، وهو والد الخاتون زوجة نور الدين محمود زنكي، توفي عام 544هـ/1149م.
انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، ج1، صـ297، ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1985م، ج12، صـ443.

[2] مجير الدين: أبق بن محمد بن بودي بن طغتكين التركي الملك مجير الدين أبو سعيد صاحب دمشق، ولد ببعلبك وأقيم في إمارة دمشق بعد أبيه وهو دون البلوغ، وكان المدبر لدولته معين الدين، توفى سنة أربع وستين وخمسمائة؛ الصفدي: الوافي بالوفيات؛ (فرانز، بقيسبادن، ط1982م، ج6)، صـ188.

[3] ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، (مكتبة المتنبي، القاهرة، ب.ط)، صـ289؛ عمر رضا كحاله: العالم الإسلامي، (الشركة المتحدة للتوزيع، ج1، ب.ط)، صـ136؛ محمد الناصر: الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري، (مكتبة الكوثر، الرياض، ط1، 1998)، صـ186؛ محمد على العبد، نور الدين بطل الوحدة، (دار الاعتصام، دمشق، ط1980)، صـ103؛ محمد مؤنس: الحروب الصليبية، (دار عين، القاهرة، ط1، 2000م)، صـ181.

[4] حوران: إقليم جغرافي في جنوب سوريا يمتد إلى ما وراء الحدود الأردنية ويعرف اليوم باسم محافظة درعا. ويتألف من سهول هضبة تكتنفها المرتفعات؛ أحمد عطية: القاموس الاسلامي دار النهضة العربية، القاهرة، ط1، 1976م، ج2، صـ76.

[5] ابن القلانسي: ذيل، صـ231؛ ابن الأثير: الكامل، ج 11، صـ147؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، (دار الكتب العلمية؛ بيروت، ج5، ط1، 1992)، صـ286.

[6] علي بن الصوفي المعروف بمؤيد الدولة. وهو وزير دمشق لمجير الدين؛ ابن كثير: البداية، ج12، صـ249

[7] أبو الهيجاء: تاريخ أبي الهيجاء، (رياض الصالحين، ط1، 1993)، صـ215.

[8] ابن القلانسي: ذيل، صـ308؛ أبو شامه: الروضتين في أخبار الدولتين، (دار الجيل، بيروت، ط2، 1974م)، صـ52.

[9] عماد الدين خليل: رحلة في تكوين حاكم مسلم، (دار الاعتصام القاهرة، د.(ت))، صـ41؛ مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، (دار المطبوعات الحديثة، جدة، ط1، 1986م)؛ محمود التكريتي: الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، (دار الرشيد للنشر، العراق، ط1981م)، صـ57.

[10] ابن القلانسي: ذيل، صـ309؛ أبو الهيجاء: تاريخ، صـ217.

[11] ابن القلانسي: ذيل، صـ308.

[12] ابن منقذ: الاعتبار، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999م)، صـ10؛ أبو الهيجاء: تاريخ، صـ218؛ العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، (دار النهضة العربية، القاهرة، ج1، ط 1993م)، صـ587.

[13] ابن القلانسي: ذيل صـ 308، ابن كثير: البداية، ج 12؛ صـ245؛ سبط الجوزى: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، (مطبعة دائرة المعارف العثمانية، الهند، ج 8، ط 1951م)، صـ206؛ بسام العسلي: نور الدين القائد، (دار النفائس، بيروت، ط 2، 1988)، صـ910؛ محمد كرد علي: خطط الشام، (مكتبة النورى، دمشق، ج2، ط 3، 1983م)، صـ 23.

[14] أبو شامه: الروضتين، ص. 7

[15] ابن القلانسي: ذيل صـ 312، أبو شامه: الروضتين، صـ. 8.

[16] أبو الهيجاء: تاريخ، صـ222؛ سبط الجوزي: مرآة، ج8، صـ29؛ محمد كرد علي: خطط الشام، صـ24.

[17] داريا: ضاحية تاريخية من ضواحي دمشق بالقرب من دمشق؛ أحمد عطية: القاموس، ج2، صـ328.

[18] ابن القلانسي: ذيل، صـ314؛ أبو شامه: الروضتين، صـ80، حصة الوراثان الجهاد الإسلامي في الشرق الأدنى ضد الصليبيين فيما بين الحملتين الثانية والثالثة، (رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية للبنات، الرياض، 1988م)، صـ55.

[19] ابن القلانسي: ذيل، صـ314؛ ابن قاضي شهبه: الكواكب الدرية في السيرة النورية، (تحقيق محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971)، صـ137.

[20] بصرى: مدينة قديمة تقع في إقليم حوران في جنوب دمشق، وقد اشتهرت في التاريخ بأن النبي قدمها في صباه مع عمه أبي طالب وفيها التقى بالراهب المسيحي بحيرا، وهي مبنية بالحجارة السوداء وبها سوق ومنبر ولها قلعة ذات بناء متين؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، (المطبعة المحلية، باريس، ط1850م)، صـ203.

[21] شاكر أبو بدر: الأسرة الزنكية والحروب الصليبية، (بيروت، ط1972)، صـ248.

22 أبو الحسن علي بن الحسن البلخي الواعظ الزاهد، فكان معرضاً عن الدنيا وكان يلقب ببرهان الدين، وهي الذي أبطل حي على خير العمل في حلب؛ الذهبي: العبر، (دار الكتب العلمية، بيروت، د(ت)، ج3)، صـ6

23 ابن القلانسي: ذيل، صـ314.

24 ابن القلانسي: ذيل، صـ316؛ أبو الهيجاء: مصدر سابق، ص،222؛ تيسيرين موسى: نظرة عربية على غزوات الفرنج من بداية الحروب الصليبية في وفاة نور الدين، (طرابلس، الدار العربية للكتاب، ب.ط)، صـ151.

25 التكريتي: الايوبيون، صـ57؛ عبد العزيز سالم: طرابلس الشام، صـ240؛ حسين مؤنس:نور الدين زنكي في الحروب الصليبية، (الزهراء للإعلام، القاهرة، ط2، 1984م)، صـ244.

26 ابن الأثير: الكامل، ج11، صـ198؛ أبو شامه: الروضتين، صـ90؛ انتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية، صـ164؛ محمد على العبد: مرجع سابق، صـ106؛ مسفر الغامدي: الجهاد، صـ277.

27 بانياس: اسم لبلدة صغيره ذات أشجار وأنهار وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميله إلى الجنوب، والصبيبة اسم لقلعتها وهي من الحصون المتينة. ومدينة بانياس في لحف جبل الثلج وهو مطل عليها. ابو الفدا: تقويم البلدان، صـ239.

28 ابن الأثير: الكامل، ج11، صـ188؛ ابن القلانسي: ذيل، صـ32؛ أحمد بن علي الحريري: الإعلام والتبيين بخروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين، (ت سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، دمشق، ط1981م)، صـ27؛ سبط الجوزي: مرآة، ج8، صـ215. حسن عبد الوهاب: تاريخ قيسارية الشام، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1990)، صـ116.

29 ابن منقذ: الاعتبار، صـ14.

30 ابن واصل: مفرج الكروب، (تحقيق جمال الدين الشيال، د(ت)، ج1)، صـ126.

31 محمد مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع على مصر، (المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، القاهرة، د(ت))، صـ10.

32 الأحداث: منظمة شعبية شبه عسكرية كانت قائمة في أكثر المدن السورية في العهد السلجوقي: سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، (دار الفكر، دمشق، ط4، 1401هـ)، صـ80.

33 ابن القلانسي: ذيل، صـ321؛ ابو شامه: الروضتين، صـ90.

34 ابن القلانسي: ذيل، صـ325؛ ابو شامه: الروضتين، صـ95.

35 حسين مؤنس: نور الدين زنكي، صـ246؛ مسفر الغامدي: الجهاد، صـ278.

36 عطاء الخادم: أحد أمراء دمشق، وقد تغلب على الأمور بأمر مجير الدين، وكان ينوب على بعلبك في بعض الأحيان، وقد كان ظالماً غاشما وهو الذي ينسب إليه مسجد عطاء؛ ابن كثير: البداية، ج12، صـ249.

37 ابن الأثير: الكامل، ج 11، صـ145؛ ابن القرماني: أخبار الدول وآثار الأول، (عالم الكتب، بيروت، د(ت))، صـ28؛ سبط الجوزي: مرآة، ج8، صـ25؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج1، صـ524

38 بعلبك: بلدة لبنانية قديمة بإقليم البقاع. إستولى عليها العرب عام 16 هـ/ 637م على يد أبي عبيدة فاتح الشام، وتداولتها أيدي الولاة الذين حكموا الشام باسم الخلفاء والسلاجقة المصريين، وأقاموا الأسوار والسياج لتحصينها ولذا كان معبد بعلبك مزيجاً من الآثار؛ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، صـ156؛ أحمد عطية: القاموس، ج1، صـ329.

39 ابن الأثير: الكامل، ج11، صـ118؛ ابن القلانسي: ذيل، صـ287؛ آرنست باركر: الحروب الصليبية، صـ158؛ إبراهيم العدوي: مصر والشرق العربي، صـ152.

40 الزناطرة: طبقة من سكان المدن كانت مولعة بتحريك الفتن والقلاقل؛ الغامدي: الجهاد، صـ278، حاشية رقم (4).

41 ابن الأثير: الكامل، ج11، صـ198؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، صـ127.

42 العسلي: نور الدين، صـ93؛ تيسير بن موسى: نظرة عربية، صـ152.

43 ابن الشحنة: روض المناظر، (تحقيق سيد محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997)، صـ212؛ سهيل زكار: الحروب الصليبية، (دار إحسان، دمشق، ج2، ط1، 1984)، صـ786.

44 عبد القادر الريحاوي: قلعة دمشق، (مطبوعات القوات المسلحة، دمشق، ط 1979م)، صـ51.

45 الصفدي: تحفة ذوي الألباب، (تحقيق إحسان سعيد، دار صادر، بيروت، ط1992م)، صـ380؛ خليل البدوي: موسوعة عظماء ومشاهير، (دار أسامة، عمان، ط1، 1999م)، صـ262؛ عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية، (دار الفكر، القاهرة، ط2، 1984م)، صـ71.

46 ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، صـ127؛ سبط الجوزي: مرآة، ج8، صـ222؛ خاشع المعاضيدي: الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، (دار الحرية، بغداد، ط1، 1975)، صـ192؛ سهيل زكار: الحروب الصليبية، ج2، صـ786.

47 عبد القادر الريحاوي: قلعة دمشق، صـ38.

48 حمص: مدينة سورية تقع في وادي نهر العاصي في موضع متوسط بين دمشق وحلب، وقد استولى عليها المسلمون عام 15هـ / 636م، على يد القائد أبو عبيده بن الجراح، وهي أصح بلاد الشام هواء وتربة، انظر القزويني: آثار البلاد، ص184؛ انظر: أحمد عطيه: القاموس، ج2، ص158.

49 محمد كرد علي: خطط الشام، ج2، ص29.

50 بالس: مدينة قديمة على شاطئ الفرات تحمل منها التجارات التي ترد من مصر والشام إلى السفن إلى بغداد، وهي أول مدن الشام من العراق، ابن الشحنه: الدر المنتخب، (دار الكتاب العربي، دمشق، ط1984)، ص159؛ الإصطخري: مسالك الممالك، ص62.

51 أبو الهيجاء: تاريخ، ص230، ابن خلدون: العبر، (دار الكتب العلمية، بيروت، ج5، ط1، 1992)، ص289؛ كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، (دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1948م)، ص349

52 سبط الجوزي: مرآة، ج8، ص221.

53 محمد العوفي: العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية في العصر السلجوقي، (الرياض، ط1، 1982م)، ص175.

54 حامد غنيم: الجبهة الإسلامية، (دار الثقافة، القاهرة، ج2، ط2، 1984م)، ص18؛ فيليب حتى: تاريخ العرب (مطول)، (دار الثقافة، بيروت، ج2، ط الرابعة، 1965م)، ص763؛ مسفر الغامدي: الجهاد، ص280.

55 ابن الاثير: الباهر، ص98؛ انتوني يردج: تاريخ الحروب الصليبية، ص164.

56 مدينة منبج: مدينة قديمة تقع على الفرات الأعظم، وقد بناها كسرى وسماها منبه أي أجود، ولقد تمكن المسلمون من فتحها بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، وهي مدنية حسنة البناء وصحيحة الهواء ويحيط بها سور عتيق ولها نهر يجري إليها من عين تاب وهو الساجور، ومنها الشاعر البحتري، انظر الإصطخري: المسالك والممالك، ص62؛ الدمشقي: نخبة الدهر، ص233، ابن جبير: الرحلة، (دار الهلال، بيروت، ط2، 1986م)، ص200؛ ابن الشحنه، الدر المنتخب، ص226.

57 قطب الدين ينال: كان من قواد نور الدين، تعصب للملك الصالح بعد وفاة نور الدين فأخذ السلطان منه منبج سنة 571هـ؛ الحنبلي: شفاء القلوب، (مكتبة الثقافة، بورسعيد، ط1996م)، ص108، ح رقم (4).

58 ابن الأثير: الكامل، ج11، ص329؛ محمد علي العبد: نورالدين، ص136.

59 جعبر: تقع على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين، وكانت قديماً تسمى درسر فملكها رجل أعمى يقال له جعبر بن مالك؛ الحموي: معجم البلدان، (دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.). ج2، ص142.

60 ابن الاثير: الكامل، ج11، ص334.

61 ابن الداية: مجد الدين أبو بكر من كبار أمراء نور الدين، بل ورضيعه وصاحب أمره، كانت حلب وقلعة جعبر وحارم إقطاعه توفى عام 565هـ / 1170م. انظر سبط الجوزي: مرآة، ج8، ص281.

62 سروج: مدينة تاريخية تقع اليوم في دولة تركيا، بالقرب من الحدود السورية وتعتبر مركزاً عسكرياً في شمال الجزيرة وعلى الطريق من الموصل إلى حلب، لهذا توالى تحصينها لا سيما أبان الحروب الصليبية، أحمد عطية: القاموس، ج3، ص318.

63 الباب وبزاعه: هما قريتان عظيمتان، في كل واحدة منها منبر وخطيب ولكل منهما وال وقاضي، والباب تقع بين بزاعه وحلب، وهي أكثر عمارة من بزاعه وتضم عدداً كبيراً من الإسماعيلية، أما بزاعه فإنها تصغر عن المدن وتكبر عن القرى؛ انظر ابن جبير: الرحلة، ص202؛ ابن الشحنه: الدر المنتخب، ص172.

64 ابن الأثير: الكامل، ج11، ص334؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص155؛ ابن كثير: البداية، ج12، ص2776.

65 شمس الدين علي بن الداية: من كبار أمراء الدولتين النورية والصلاحية، وقد أقطعه نور الدين مدينة شيزر، وكان نور الدين دائم الأخذ برأيه؛ أبو شامه، الروضتين، ص231.